المحاضرة السابعة

السرد الفلسفي

تخمر الطين في جزيرة من جزائر الهند، و هي كما ذكر سلفنا الصالح – رضي الله عنهم– أن جزيرة من جزائر الهند التي تحت خط الاستواء، و هي الجزيرة التي يتولد بها الإنسان من غير أب و لا أم، و بها شجر يثمر نساء و هي التي ذكر المسعودي أنها جزر الواقواق" (ابن طفيل " حي بن يقظان" ص:117)

تمهيد:

لقد تنبّه الأدباء إلى ما يمكن أن يؤديه الفن و الأدب في التعبير عن فكرهم الفلسفي، فاستخدموا فن القصة للتقنع خلفها من أجل التعبير عن أفكارهم في شكل رمزي، تماما مثلما فعل ابن طفيل في قصته " حي بن يقظان".

مفهوم السرد الفلسفي و خصائصه:

السرد الفلسفي هو نتاج تقاطع عديد المعارف من فلسفات و تأملات و أفكار و نظريات فلسفية، تؤدى بأسلوب قصصي مشوق و وفق رؤية جمالية، و تحتوي على وفر من الفنيات من حدث و شخوص و حبكة و غيرها من مقومات القصة.

و تتجلى في هذا النوع من القصص قدرة الكاتب على المزج بين ما هو فلسفي و ما هو أدبي فني و يتغيّي من خلال ذلك إلى تقنيع أفكاره الفلسفية خلف أقنعة بلاغية مراوغة من شأنها

مخاتلة السلطة ، إن التخوف من القمع السلطوي و انكشاف النوايا الفكرية أدى بالفلاسفة إلى: " اختراع قصة تكثّف فيها المعاني الفلسفيى، فالقصة هي سلة فاكهة العقليات و ليس البحث البرهاني، و القصة هي التي تحفظ تراث العقليين" [1]

فالسرد الفلسفي على هذا النحو سرد يزاوج بين القيمة الفلسفية و القيمة الأدبية ليحقق رؤية عالمية كونية كاسرة للهويات الدينية و العصبيات العرقية حيث تخلق نوعا من تواصل الثقافات[2]

و هي: " عمل إبداعي مثقل بالرموز و الأفكار و هي نتاج عقل واع في أعلى درجات اليقظة و التفكير، و اعتمد كاتبها المجاز و التمثيل ليقدم أسراره و أفكاره و أشواقه و رؤاه مرمّزة ليخاطب بها الخاصة دون العامة لغاية تمثيل و ترسيخ و مقاربة الفكرة، أو ضمانا للسلامة و تجنب أذى أهل الظاهر "[3]

و يعرفها جابر عصفور بقوله:" أنها ما يريد بها كاتبها من معنى فلا يدل عليه بلفظه الموضوع له و لا بلفظ قريب من لفظه، و إنما يأتي بلفظ و أحداث أبعد، تصلح أن تكون مثالا للفظ المعنى المراد و أحداثه، فيقوم بعملية (تمثيل) لحملتها استبدال ظاهر بباطن، و سداها العلاقة المجازية التي تنطوي على أحداث التمثيل..." [4] و لكن يظل ظاهر هذا القص مراوغا في كل

---

[1]- الحرز عبد اللطيف " السرد الفلسفي" ص:10

[2]- ينظر المرجع نفسه ص:10

- قلعة جي"الاشراق و الإبداع في القصص الرمزي و الفلسفي" م المعرفة،سوريا، العدد565 أكتوبر2010 ص:287
[3]

[4]-جابر عصفور " غواية التراث. الدار المصرية اللبنانية. ص:327

الأحوال، لا دلالة له بعيدا عن باطنه و لا فهم له دون رد معناه الأول الظاهر على معناه الثاني الباطن الذي هو الأصل و المقصد [1]

يجسد هذا النوع من القص مقدرة عالية على أداء المعاني، و يعتمد أساسا على سعة الخيال" و على حيوية دافقة في التعبير الأدبي الذي يتسع مع الفكرة و مداها و يتحدد في تصوير الفكرة الفلسفية تصويرا دقيقا مجسدا في أشخاص و مشاهد ذات مدلولات رمزية"[2]

و يعتمد السرد الفلسفي على:

التمثيل المعرفي:

مما لا شك فيه أن القصة الفلسفية تنتمي لحقل الأدب المعرفي، لأنها في مجملها تمثيل للأفكار الفلسفية في قالب قصصي مشوق يتغيّى المتعة الجمالية و الفائدة المعرفية معا، لأن التمثيل: " أوضح للمنطق، و أبين في المعنى، و آنق للسمع، و أوسع لشعوب الحديث"[3]

و تتجلى وظيفة السرد الفلسفي في تمثيل رمزي للمفاهيم الفلسفية بغية تيسيرها، و هدفها الأساسي يتجلى في: " قول فكرة فلسفية، هذا الهدف قد يجعل الفيلسوف يضحي بالمستوى الفني القصصي، و بنضج هذا المستوى الذي يأتي أحيانا متفاوت النضج و لو كان هذا الشكل القصصي مقصودا لذاته لتجلى في تطوير و إنضاج هذا الفن، بيد أنه لم يكن أكثر من وسيلة إلى التعبير عن فكرة و جعلها أكثر تأثيرا و وضوحا" [4]

---

[1]- المرجع نفسه.ص:328

[2]- عمر فائز " أدبية النص الفلسفي" دار تموز. دمشق 201ص:36

[3]- ابن المقفع: " الأدب الكبير و الأدب الصغير" ت إنعام أنفال. دار الكتاب العربي، بيروت ص:32

[4]- عمر فائز " أدبية النص الفلسفي" ص:36

الرمزية و بلاغة الغموض:

يتخذ السرد الفلسفي الرمز وسيلة فنية لتبليغ الأفكار و تكثيفها بغية الانفتاح على عوالم لامتناهية من الدلالة، إذ يفتح الترميز آفاقا رحبة للتأويل الذي يسهم في توليد المعنى على نحو لا متناهي، فالرمز لا يدعونا للدلالة الواحدة المتفردة و إنما يشرّع أبوابا للتأويل و التأمل" فهو يجمع بين الحضور و الغياب، و بين الإيحاء و التستر، فبقدر بما يوحي بما يخفيه الفيلسوف من أفكار و أسرار و دلالات عميقة، فإنه تجسيد لأفكار فلسفية و نظريات معرفية يريد الفيلسوف نشرها و هذا التجسيد مبني عللى الرمز و التمثيل و الاستعارة[1]

و يستعمل المتكلم الرمز:" فيما يريد طيه عن كافة الناس و الإفضاء إلى بعضهم" [2]

فالرمز يستر و يضمر باطنا مخزونا تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهله، و تتم الاستعاضة بالرمز حينما تنعدم إمكانية التعبير باللغة التقريرية المباشرة، فيبدي النص ظاهرا و يبطن مضمرا على سبيل الإلحاح المراوغ على الالتفات إلى معماره الباطن.

و عليه فإن ثنائيات الحضور و الغياب و الظهور و التستر أدت بالضرورة إلى انفتاح نصي دلالي لا متناهي على كثير من وجهات النظر المتباينة التي تزيد النص ثراء و سعة.

الثنائيات الضدية:

[1]- ينظر محمد سالم" سردية التشكيل و التأويل في القصص المعرفي" أطروحة دكتوراه ج بسكرة2020.ص:110

[2]- جابر عصفور " غواية التراث" ص:302

هي في مجملها ثنائيات يحتفي بها السرد الفلسفي لأنه يقوم بتمثيل الفكر و " طبيعة الوجود البشري فهو مجموعة من لا متناهية من الثنائيات المتناقضة(حياة موت)، (حزن فرح)، (بداية نهاية)، (روح جسد) و هو موطن جمالي من حيث كون الشيئ يتضح أكثر من خلاله نقيضه، فسمة الحياة تبرز بمقارنتها بالموت" [1]

و إذا كان السرد الفلسفي يعتمد التناقض، فإن هذه الثنائيات هي بمثابة المقوم الأساسي لهذا النوع من السرد، و إن كانت هذه الثنائيات تتبدى في الظاهر أنها متناقضة فإنها على العكس من ذلك تماما، و أبرز هذه الثنائيات: (العقل و النفس)،(الروح و الجسد)، (الفضيلة و الشهوة)، (الحكمة و الشريعة)، (آدم و إبليس)، (الظاهر و الباطن)...و تشكل هذه الثنائيات الشيفرة التي تفك المعنى و تحمل المتلقي على أن يشارك الفيلسوف قناعاته.

من القصة إلى الفلسفة:

إن استخدام الخيال و الترميز لل تعبير عن الأفكار الفلسفية من الأساليب التي اعتمدها الفلاسفة منذ القدم، و من ذلك استخدام أفلاطون للأساطير (أسطورة الكهف)

[1]- يونس " القضايا النقدية في النثر الصوفي" منشورات اتحاد الكتاب العرب. سوريا 2006ص37

و لقد أثبت الأدب جدارته في استيعاب الأفكار الفلسفية، فلم يتحرّج الفلاسفة من إيراد أفكارهم في قوالب أدبية، فنظم ابن سينا قصيدة النفس، و كتب المعري رسالة الغفران، و كتب ابن طفيل حي بن يقظان.